شـلر

للكاتب الكبير توماس كارليل

ترجمة الأستاذ يوسف عبد المسيح ثروت

— ٧ —

اعتبر المزاح فى الشعر أول دليـل من دلائل عـذوبته ولطفه وخفته . والذى يعوزه هذا ، ولو كان يمتلك جميع المواهب الأخرى ، يمتلك نصف ذهن لأن نظره لا يفارق الأشياء العلوية ليرى الأشـياء الدنيوية المحيطة له . وينفرد شلر من بين جميع الشعراء المباقرة بمثل هذا القصور . لأنك لن تجد فى كل كتاباته دليلا واحداً على هذه الروح ولا حتى محاولة فى هذا الاتجاه . لأن طبيعته نفسها خالية من ذلك . وكانت مشاعره جـدية لدرجة لا تسمح لنفسها باتخاذ أى أسـلوب فيه أى نوع من المرح أو المزاح . وهـكذا لا يمكن الـكشف عن أى نوع من الهزل أو الـكاريكاتور أو السخرية . هذه الأشياء التى هى جوهر المزاح — فى أى شئ كتبه شلر . فؤلفاته مفعمة بالجد الـكدود ولذا يعتبر أرسن كاتب . ولـكننا مع ذلك نجد فى بعض بحوثه النقدية وخصوصاً كتابه (الرسائل الجمالية) ما يدعى (بالنازع الرياضى) وهو يعتبر أعلى هدف فى ثقافة الإنسان . وهذا يدل دلالة بينة على أنه عرف معنى الهزل وأهميته بالنسبة إلى فكره ، ولو أن ذلك كان غريباً عنه وبعيداً منه ... ومع ذلك فهو لم يدرك هذه الذروة التى رآها بكل هذا الوضوح والجلاء . فالروح الرياضية ظلت معه مجرد نظرية إلى الأخير . وباستثناء كتابه (ولنشتاين لاغر) — الذى يظهر فيه الهزل باهتاً ضحلا — فإن محاولاته فى هـذا الخصوص — على قلتها — كانت ثقيلة جامدة . وميزانه فى كل شئ كتبه لا تعدو الشدة الصارمة والنبرة الحماسية الجدية ، والفخامة البعيدة عن الرشاقة ، بينما نرى الخفة والروح الرياضية معدومة فيه تماماً . لقد كانت عنده فطنة ولـكن هذه الفطنة لم تكن أهم مواهبه . وربما يرجع ذلك إلى إخلاصه واستقامته فى استخدام فطنته ، وانصبابه على تبين العـلائق العميقة بين الأشياء بدلا من ملاحظة تصادماتها الوقتية . زد على ذلك أنه كان يقصد (الإثبات) لا (النفى) — أى أنه كان يعتبر ما هو موجود أنه أحسن ما هو موجود — وفى النفى وحده يظهر عامل الفطنة الهازلة . لقد وضعنا هذه الملاحظات للاشـارة إلى حدود عظمة شلر والفرع الذى اختص به . وهذا لا يعنى نكران حقيقة هذه العظمة . أما شعوره بالحقيقة تأملا وعملا وإدراكه البهيج العميق للطبيعة والانسجام الحى الذى بواسطته يتمكن من تصوير ما هو جليل وعظيم فى الطبيعة ، فأمور يعرفها كل من قرأ كتبه ، وعليـه فليس من حاجة لتذكيرهم بها . وهو يعد فى طليعة الشعراء الذين كتبوا فى البطولات التراجيدية الشجية ، إذا لم يكن أعظمهم إطلاقاً . وهناك أمام دارسى شلر المثابرين جهاد شـاق قبل التعرف على آرائه ، لأن الـكنوز الخفية من الفكر والشعور لم تزل مغطاة بغطاء النسيان . وهناك نغمة فى بعض كتبه الأخيرة فيها لحن العوالم العليا مجسداً فى الفن . وعليه فليست النواقص الطبيعية والعرضية التى عرضناها فى عبقريته ، بمانعة من اعتباره من أعاظم الشعراء ، وهـذا ليس غريباً فى شئ لأن كثيراً من الشعراء العظام كانت لديهم هذه الهنات . ولنضرب لذلك مثلا ، ملتون ، فهو يقاسمه فى كثير من معايبه ، لأنه كان يركن إلى الجزالة فى اللفظ والفخامـة فى الأداء ، ويتطلع إلى الأعلى وإلى كل شئ جدى ، أما ما يخص شؤون الحيـاة الأرضية فتراه قاصراً فى فهمها وإدراكهـا . وهو كذلك ليس لديه من المزاح إلا القليل . وأسـلوبه خشن فى الهجاء مع توكيد على السخرية والتهكم وابتعاد من المرح والروح الرياضية اللعوب . أما من الناحية الإيجابية فهناك تشابه أكبر بين هاتين الشخصيتين ، ولو أن شلر عاش فى ظروف أخرى ، ولم يمتلك تلك القوة الروحية العنيفة ولا تلك القابلية الضخمة ، ولـكنه كان يشبه ملتون فى شدته وتركيزه على ما هو سـام فى الطبيعة والفن . وقد عشق — كل على طريقته الخاصة — ذلك السناء السماوى — وعبده عبادة قلبية صادقة . ولـكن طبيعة شلر يعوزها الانسجام الفنى الذى امتاز به ملتون . وقد عرف ملتون بنغمه وعذوبة موسيقاه المترابطة . ومع ذلك ، فعند شـلر شئ من القوة النقية المتفجرة

والنغمات العذبة التى تشبه فى جلالها وعمقها ونغماتها نغمات ملتون الخالدة

امتاز شلر فى العالم كمؤلف دراماتيكى ، وغالبا ما نشعر بأن القدر وليس الميل الطبيعى هو الذى قاده فى هذا الاتجاه ، لأن موهبته كانت غنائية (lyrical) أو بطولية (Epical) أكثر مما كانت دراماتيكية . لقد عاش منطويا على نفسه ، وهذا ما جعل عمله فى تصوير العالم الخارجى أمراً صعباً . لا بل إن كثيراً من شعره — كما أشرنا من قبل — هو خطابى أكثر مما هو شعرى . ومع ذلك ، فالنار النقية الوهاجة ظلت مستعرة فى أعماق روحه ، هذه النار التى لا تجد متنفساً إلا فى الشعر . أما بقية سجيته فكانت أميل إلى الصرامة العادية ، مما جعل تطور قابليته الشعرية أمراً فى غاية الصعوبة والإجهاد . فهذا العنصر المسيطر النقى لم يكن يتطور التطور المطلوب ، لأنه كان كالنهر البطئ الجريان فى وسط صخور ناتئة كبيرة . لقد تكلمنا كثيراً عن حمية شلر غير المجزأة فى التثقيف الذاتى وفى التقدم الذى انجزه بالرغم من الصعوبات التى تخطاها . يتجلى لنا ذلك بكل وضوح إذا نحن قارنا بين مؤلفاته المبكرة والمتأخرة . وبهذه الواسطة سنقدم لقرائنا الذين لم يتعرفوا على شلر فكرة واضحة عن شخصيته الشعرية ، لأن الوصف وحده غير مجد فى ذلك . دعنا نأخذ (اللصوص) لأنها أول إنتاجه ، هذا الإنتاج الذى يدعوه شلر (بالعملاق الذى ولد فى التزاوج غير الطبيعى بين العبقرية والعبودية) ؛ ولا شك أن النار المتأججة فى هذه القطعة حتى فى الفقرات المنفصلة . وللمنظر الآتى معجبون حتى فى ترجمتنا الإنجليزية العادية الماثلة وهى المنظر الثانى فى الفصل الثالث

« اللصوص »

منظر ريف على الدانوب

اللصوص مجتمعون فى المرتفع تحت الأشجار الوارفة ؛ الخيل ترعى فى سفح التل

مور : لا أقدر على السير أكثر (يرمى بنفسه على الأرض) . إن أطرافى تؤلمنى وكأنها سحقت سحقاً . إن لسانى لا فح من العطش (يتسلل شفارز خلسة) . أرجو أن تجلبوا لى قليلا من الماء من الساقية ؛ ولكنكم متعبون حتى الموت .

شفارز : وكذلك الخمر موجودة فى الأدنان

مور : أنظر ما أجمل موسم القطاف ! إن الأشجار تتكسر تحت أثقالها التى تنوء بها . والأمل فى الكروم كبير

كرم : إن السنة سنة خير

مور : أتظن ذلك ؟ وإذن فتاعب الإنسان فى هذا العالم ستجازى . ومع ذلك فقد تدهمنا عاصفة برد فتدمر كل شئ

شفارز : هذا محتمل تماماً . قد يدمر كل ذلك قبل الحصاد بساعتين

مور : وهكذا أقول أنا . سيتدمر كل شئ . لماذا ينجح الإنسان . فيما يتعلمه من النملة ، بينما هو يفشل فيما يجعله شبيهاً بالآلهة ؟ أهذا الهدف الحق من مصيره ؟

شفارز : أنا لا أعلم ذلك

مور : لقد قلت حسناً ، وأجدت عملا ، إذ أنك لم تحاول أن تعرف ذلك ! — أخى — لقد نظرت إلى الناس وإلى مخاوفهم التافهة ومشاريعهم العظيمة وخططهم الآلهية ومشاغلهم الوضيعة ومسابقاتهم المدهشة لإدراك السعادة ؛ فمنهم من يعتمد على عدو حصانه ، ومنهم من يعتمد على دابته ، ومنهم من يعتمد على قدميه ، وفلك الحظ دائر بسرعة جنونية ، ومثل هذا الفلك يقرر مصير كثير منهم . وكل يسعى لا هثاً للحصول على الجائزة ، ولكن البطاقات كلها فاشلة . إنها ، يا أخى ، مأساة تستنزل الدمع الدامى ولو أنها تستثير الضحك

شفارز : أن غروب الشمس رائع جدا

مور : (متوارياً عن الأنظار) وهكذا يموت البطل ليعيد

كرم : يظهر إن هذا أثارك

مور : عندما كنت صبيا ، كانت فكرتى الحبيبة أن أعيش كذلك وأموت كذلك (بألم دفين) لقد كانت فكرة صبى وحسب

كرم : آمل أن يكون ذلك حقا !

مور (ينزل قبعته على وجهه) يوم كنا ولا تسل كيف كنا ، دعونى . وحيدا ، أيها الرفاق

شفارز : مور ! مور ! ماذا ؟ يالشيطان ! كيف تغير لونه !

كرم : ها ! ماذا يؤلمه ؟ أهو مريض ؟

مور : مرت أيام لم أكن أستطيع ان أنام فيها إذا أنا نسيت صلاة المساء ...

كرم : هل أنت مجنون ؟ هل تترك مثل هذه التخيلات والوساوس لتهذبك من جديد ! ؟

مور : (يضع رأسه على صدر كرم) أخي ! أخي !

كرم : تعال ! لا تكن طفلا ، أستعطفك بالله ...

مور : آه لو كنت طفلا ! آه لو كنت وحيداً !

كرم : بوه ! بوه !

شفارز : مرحى . تطلع إلى المنظر البديع والمساء الجميل

مور : نعم أيها الأصدقاء ، إن هذا العالم بديع حقا

شفارز : نعم ، هذا حق

مور : إن هذه الأرض رائعة

كرم : حقا ، حقا ، وهو كذلك

مور : (مستلقياً على ظهره) ولكني بشع الخلقة في هذا العالم الجميل وغريب الشكل في هذه الأرض الرائعة

كرم : دعنا من ذلك

مور : سذاجتي ! سذاجتي ! أنظر ، إلى الأشياء كيف تضحى تحت أشعة الربيع الهادئة : لم يجب على أن أتنشق عذاب الجحيم من مسارب مسرات الحياة ؟ والناس كلهم مسرورين تربطهم رابطة السلام ؛ والعالم عائلة واحدة ترعاها عين الأب الحدب في الأعالي ، ولكنه ليس أبي ! وأنا وحدي طريد شريد ، وبعيد عن مجتمع الأخيار ، ليس لي ولد يلغ باسمي ، وليس لي أمل في نظرة واهنة . ممن أحب ، ولا رجاء في عناق صديق حميم . أنا محاط بالقتلة ، والأفاعي تفح حولي ، أنا مندفع إلى خليج الفناء على تيار الإثم المتدفق

شفارز : (إلى الآخرين) ما هذا ؟ لم أره هكذا قبلا أبدا

مور : (بحزن مثير) آه ، لو كان في إمكاني الرجوع إلى بطن أمي ! — آه ، لو ولدت متسولا ! كلا ! أيتها السماء أنا لا أجرؤ أن أصلي كي أكون واحدا من العمال حتى أعمل طول نهاري . أعمل حتى يتفطر صدغي دما ، لأشتري لنفسي راحة نوم ظهيرة واحدة . وعزاء دمعة واحدة

كرم : (إلى الآخرين) صبرا لحظة واحدة ، لأن النوبة عابرة

مور : لقد فات الزمان الذي كنت أتمكن من البكاء فيه . آه على أيام السلام ، يا قلعة والدي ، أيتها الوديان الخضراء ! واها على مناظر طفولتي ! ألا تعودين إلى مرة أخرى بتأوهاتك المكررة العاطرة لتهدئ روع قلبي المستعر . اندبي معي أيتها الطبيعة . إن هذه الأيام لن تعود مطلقا لتطفئ النار المشتعلة في صدري . إنها ذهبت ! ذهبت ! ولن ترجع

« أو خذ مثلا مناجاة مور في موضوع الانتحار ، في غابة في منتصف الليل بين اللصوص الراقدين »

(يترك القيثارة جانبا ، ويسير صعودا ونزولا في تفكير عميق)

الكلام صلة

يوسف عبد المسيح ثروت

مختارات من الأدب الفرنسي

شعر ونثر

للأستاذ أحمد حسن الزيات

مجموعة من أروع القصص القصير وأبلغ القصائد المختارة لصفوة من نوابغ كتاب فرنسا وشعرائها

وثمنه ٢٥ قرشاً عدا أجرة البريد